الصبر ضياء

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

نتناول حديثًا عظيمًا رواه الحارث الأشعريّ، يقول فيه رسول الله ﷺ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَآنِ –أَوْ تَمْلَأُ– مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ»[1].

معنى «الصّبرُ ضياءٌ» في الحديث أنّه نور وضياء لمَن يتحرّى به؛ لذا ينبغي لك أيّها المؤمن أن تجتهد في الصبر، فهو ضياءٌ لك، ونور في قلبك، ونور لك يوم القيامة، وعليك أن تجتهد في الصبر على طاعة ربّك والابتعاد عن محارمه والصبر على المصائب. ومعنى الصبر في اللغة: الحبس، ويقصد به هنا الوقوف مع البلاء بحسن الأدب.

والصبر ضياء بأنواعه الثلاثة: صبرٌ على طاعة الله تعالى، وصبرٌ عن معصيته، وصبرٌ على النائبات وأنواع المكاره في الدنيا؛ كلّ هذا ضياءٌ لصاحبه، والمراد أنّ الصبر محمودٌ، ولا يزال صاحبه مستضيئًا مهتديًا مستمرًّا على الصواب.

١ صحيح مسلم | الصفحة أو الرقم: ٢٢٣ | خلاصة حكم المحدّث: [صحيح].

عناصر الموضوع

١ الصبر ضياء
٢ معاني مفردات الحديث
٣ معنى الحديث الإجمالي
٤ معنى الصلاة نور والصبر ضياء
٥ الفرق بين نور الصلاة وضياء الصبر
٦ ما سبب حرارة الصبر
٧ الصبر مطية لا تكبو
٨ فوائد الصبر
٩ الصبر يضيء لك وقت الشدة
١٠ صبر ساعة
١١ صبر نفسك

الصبر ضياء

تكلَّم رسول الله ﷺ عن الصبر، وأخبر أنّ للصبر أثره العظيم في سير الإنسان في هذه الدنيا على هدى ونور، وثبت في صحيح مسلم أنّه قال: «الصبر ضياء»؛ أي لا يزال صاحبه مستضيئًا به، ومهتديًا مستمرًّا على الصواب، فلا تضيره شدائد الدنيا وغوائلها ما زال على هذا الهدى والنور.

عن أبي مالك الحارث بن عاصم الأشعريّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الإيمانِ، والْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلأُ المِيزانَ، وسُبْحانَ اللهِ والْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَآنِ -أَوْ تَمْلأُ- ما بيْنَ السَّمَواتِ والأرْضِ، والصَّلاةُ نُورٌ، والصَّدَقَةُ بُرْهانٌ، والصَّبْرُ ضِياءٌ، والْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ، أوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُها، أوْ مُوبِقُها»(١).

---

١ الراوي: أبو مالك الأشعريّ | المحدّث: مسلم | المصدر: صحيح مسلم | الصفحة أو الرقم: ٢٢٣ | خلاصة حكم المحدّث: [صحيح].

معاني مفردات الحديث

فيما يأتي بيانٌ لأبرز معاني مفردات الحديث:

الكلمة	معناها
الطهور	الوضوء
شطر	شطرُ الشيء نصفُه
برهان	دليلٌ
ضياء	نور
يغدو	الغدو هو السير أوّل النهار، ويغدو أي يُبكّر
مُعتقها	منقذها
موبقها	مُهلكها

معنى الحديث الإجماليّ

كان النبيّ ﷺ يوصي أصحابه رضي الله عنهم ويرشدهم والمسلمين من بعدهم إلى ما ينفعهم ويصلح حالهم في الدنيا والآخرة، ويَذكُر عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث جملةً من الأفعال، منبِّهًا إلى فضلها وعظيم أجرها، فبدأ بالوضوء واصفًا إيّاه بأنّه نصف الإيمان؛ أي أجره نصف أجر الإيمان، وقيل: إنّ المراد بذلك أنّ الإيمان طهارةٌ وتزكيةٌ وتنقيةٌ للقلب، والوضوء طهارةٌ وتنقيةٌ للجسد وأعضائه[1].

---

١ «شرح حديث: الطهور شطر الإيمان»، الدرر السنيّة، اطّلع عليه بتاريخ ٢٠٢٢/٩/٦. بتصرّف.

ثمّ يَذكُر النبيّ ﷺ ثواب تسبيح الله تعالى وحمده، وأنّ أجرهما وثوابهما يملأ ما بين السماء والأرض؛ لعظمتهما، فالتسبيح تنزيهٌ لله تعالى عمّا لا يليق به من صفات النقص، والحمد شكرٌ لله تعالى وإثباتٌ لصفات الكمال فيه؛ لأنّ الحمد يكون على صفات الكمال. وذكّر النبيّ ﷺ بجملةٍ من العبادات واصفًا فضلها، فذكّر بالصلاة، وأنّها نورٌ؛ ذلك أنّ المسلم إذا أدّى الصلاة على الوجه الذي أمر به الله تعالى وبإخلاصٍ وقلبٍ حاضرٍ؛ انعكست هذه الصلاة نورًا في قلبه وعلى وجهه، وكانت له نورًا في قبره بإذن الله تعالى.

وذكّر النبيّ ﷺ بالصدقة، ووصفها بأنّها برهانٌ؛ أي دليلٌ على صدق إيمان المسلم؛ إذ إنّ المال محبوبُ النفس الإنسانيّة، فإذا بذله المسلم صدقةً لوجه الله تعالى، دلّ على صدق إيمانه ومحبّته لله تعالى وللتقرّب منه. ونبّه النبيّ ﷺ على فضيلة وعبادة الصبر، ولها أنواعٌ، هي: الصبر على التزام الطاعة، والصبر في البعد عن المعاصي، والصبر على الشدائد والمصائب. ووصف النبيّ ﷺ الصبر بأنّه ضياء، وفي الضياء معنى النور؛ أي إنّه نورٌ لصاحبه في الدنيا والآخرة، إلّا إنّ الضياء يختلف عن النور في أنّ في الضياء حرارة؛ فناسب وصف الصبر بالضياء لأنّه شاقٌّ على الإنسان[1].

ونبّه النبيّ ﷺ إلى القرآن الكريم، وأنّه إمّا أن يكون حجّةً للمسلم يوم القيامة إنْ هو حرص على تلاوته والعمل بما جاء في آياته، وإمّا أن يكون حجّةً عليه إنْ هو هجره فلم يتلُه، أو لم يعمل بما جاء في آياته، ثمّ ختم النبيّ ﷺ الحديث بذكر أصناف الناس: بائعٌ نفسه أو مهلكها؛ فكلّ الناس يغدو ويروح، فإمّا أن يبيع نفسه لله تعالى بالتزام طاعته واجتناب نهيه، فيفوز بالثمن؛ أي الجنّة، وإمّا أن يكون في سعيه وكدحه في هذه الحياة الدنيا حائدًا عن طاعة الله تعالى؛ فيكون الهلاكُ في الآخرة مصيرَه[2].

---

١ ابن عثيمين، شرح الأربعين النووية، صفحة ٢٢١-٢٣٤. بتصرّف.
٢ عطية سالم، شرح الأربعين النووية، صفحة ٣-٧. بتصرّف.

معنى الصلاة نور والصبر ضياء

الصلاة نور:

الصلاة نور؛ نور في الوجه، ونور في القلب، وهي نور للعبد في سلوكه إلى الله، فتجد في وجوه أهل الصلاة من الإشراق والإضاءة ما لا تجده في وجوه غيرهم ممّن لا يعرفون الصلاة. مَن لا يسجد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سجدة، ففي وجهه من الظلمة ما لا يخفى في الدنيا، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

والصلاة نور معنويّ في كلّ ذلك، ونور حسّيّ للعبد في قبره، ونور في عَرَصات القيامة والمحشر والظلمات التي يتخبّط فيها الناس، ونور له على الصراط.

الصَّبْرُ ضِياءٌ:

الضياء في قوله: «والصبر ضياءٌ» هو النور الذي يُنتِج نوعًا من الحرارةِ والإحراق، مثل ضياء الشمس، بخلاف القمر الذي نوره نورٌ محضٌ، فيه إشراقٌ من دون حرارةٍ.

ولمّا كان الصبر شاقًّا على النفوس يحتاج إلى مجاهدة النفس وحبسها وكفِّها عما تهواه، كان ضياءً.

الفرق بين نور الصلاة وضياء الصبر

الصلاة والصبر كلاهما «نور»، والفرق أنّ الصبر ضياء، والضياء هو النور الذي يُنتج حرارةً وإحراقًا، كضياء الشمس، بخلاف القمر الذي نوره نور محض، فيه إشراق من غير إحراق، قال سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥].[١]

١ (جامع العلوم والحكم: ٢/١٦٥-١٦٩).

أمّا الصلاة، فهي نور مطلق، وفيها راحة للنفس، فقد ورد في الحديث: «أرحنا بالصلاة يا بلال».[1]

وفي الصلاة قُرَّة عين للمؤمن، جاء في الحديث: «وجُعِلت قُرَّة عيني في الصلاة».[2]

ونور الصبر هو إنارته لقلب المؤمن وبصيرته عند صبره على الطاعات، وصبره عن المعاصي والمنكرات، واستبصاره الحقّ، وعند صبره على البلايا والنوازل والمُلِمّات، مع ما للصبر ونوره من عواقب حميدة في الدنيا والآخرة، وهذا كلّه لمَن أخلص صبره لله وحده.

ما سبب حرارة الصبر؟

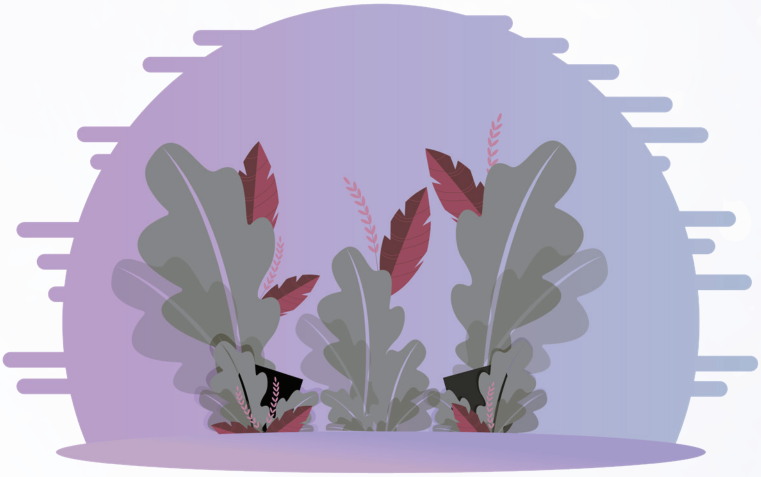

تنتُج حرارة الصبر عن ضبط النفس وحبسها وإرغامها على ما تكره، فتصاحبُ الصبرَ حرارةٌ؛ لما فيه من التعب القلبيّ والبدنيّ في بعض الأحيان.

١ (صحّحه الألبانيّ في صحيح سنن أبي داود:٤١٧١-٤١٧٢).

٢ (صحّحه الألبانيّ في صحيح سنن النسائيّ، رقم ٣٦٨٠).

وممّا سبق، نجد أنّ الصلاة نور مطلق، ولكنّه نور بارد؛ إذ هو راحة النفس وقرّة العين. أمّا الصبر، فهو نورٌ فيه نوعٌ من الحرارة والإحراق.

ولـمّا كان في الصبر نوعٌ من الحرارة، كانت الصلاة –التي فيها برودة– سبيلًا لتخفيف حرارة الصبر، بل ولإطفائها أحيانًا بإذن الله؛ فعلى قدر إكثار المؤمن من الصلاة من جانب، وعلى قدر خشوعه فيها من جانب آخر، يكون تخفيف حرارة الصبر أو إطفاؤها.

وتمثيل ذلك: الصبر كضوء الشمس، والصلاة والخشوع فيها كنور القمر، فالقمر يستمدّ نوره من ضوء الشمس، فعلى قدر ضوء الشمس يكون نور القمر هلالًا أو بدرًا.

قال الشيخ ابن عثيمين: (فالصلاة نور للعبد في قلبه، وفي وجهه، وفي قبره، وفي حشره؛ ولهذا تجد أكثر الناس نورًا في الوجوه أكثرهم صلاة، وأخشعهم فيها لله سبحانه وتعالى، فهي نور للإنسان في جميع أحواله، وهنا يقتضي أن يحافظ الإنسان عليها، وأن يحرص عليها، وأن يكثر منها حتّى يكثر نوره وعلمه وإيمانه، وأمّا الصبر فقال: إنّه (ضياء)؛ أي فيه نور، لكن نور من حرارة، كما قال الله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ﴾ [يونس: ٥]، ففيه حرارة، والصبر فيه حرارة ومرارة؛ لأنّه شاقّ على الإنسان؛ ولهذا جعل الصلاة نورًا، وجعل الصبر ضياءً؛ لما يلابسه من المشقّة والمعاناة) انتهى.[١]

فلا بدّ من الحرارة في الضوء، وهكذا لا بدّ من الحرارة والتعب في الصبر؛ لأنّ فيه مشقّة كبيرة؛ ولهذا كان أجره بغير حساب، فالفرق بين النور في الصلاة والضياء في الصبر أنّ الضياء في الصبر مصحوب بحرارة؛ لما في ذلك من التعب القلبيّ والبدنيّ في بعض الأحيان.

---

١ انظر: كتاب «شرح الأربعين النووية» لفضيلة الشيخ: «محمد بن صالح العثيمين» رحمه الله، صفحة «٢٤٨ – ٢٤٩».

الفرق أنّ الضياء يكون ممّا يحرق، أمّا النور فلا، بل قد يريح النور العين والنفس؛ لذا وصف الله تعالى الشمس بالضياء؛ لأنّها تحرق، ووصف جلَّ ذِكره القمر بالنور؛ إذ ليس في القمر ما يحرق، بل قد تستريح النفس بالنظر إليه، كذا الأمر في الصلاة والصبر، فالصلاة راحة لنفوس المؤمنين، بينما يصحب الصبرَ ألمٌ وحرقة.

ويقول ربّ سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة: ١٥٣].

علامَ يُستعان بالصبر وبالصلاة؟ لم يقل في الآية هنا: استعينوا بالصبر والصلاة على أمور معايشكم، ولا على أمور تعبُّدكم، ولا على مواجهة أعدائكم، ولا على غير ذلك، وهذا من أسرار القرآن، بل استعينوا بهما على كلّ شيء، استعينوا بالصبر واستعينوا بالصلاة على كلّ أمر؛ إذ يحتاج المؤمن في هذه الحياة إلى الصبر في جميع أحواله، خاصّة حال البلاء، ثمّ وعد ربّنا سبحانه، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة: ١٥٣].

يكشف الله سبحانه وتعالى للمسلم الطريق الصحيح للسير إليه؛ إذ بالصبر يصاحبُ الإنسانَ نور في حياته، يستبين به السبيلَ، ويتحمّل به المشاقّ، وتهون عليه الصعاب، وتنبسط له الحياة، ويُسَرُّ فيها غاية السرور، إضافة إلى كريم العطاء، وعظيم النوال الذي يناله الصابرون عند الله في الدنيا والآخرة.

الصبر منزلة عظيمة ومكانة سامية رفيعة؛ إنّما يُوفَّق لها المؤمن إذا عَظُم إيمانه، وحَسُن ظنُّه بربّه، وعرف حسن العقبى للصبر والصابرين.

واعلم أيضًا أنّ الصبر سفينة محميّة يخوض بها لُجَج هذه الحياة، لن يضيره شيء؛ لأنّه إذا تسلّح بهذا الخلق العظيم وبهذا الإيمان العميق، فلن يضرّه شيء؛ لأنّه مطيّة، كما قال سيّدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «الصبر مَطِيَّةٌ لا تَكْبو».[١]

---

١ كبا الحصان: كبا ووقع أرضًا. كبا جواده: أخفق، فشل. ابن القيم – عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين – المجلد ١ – الصفحة ١٧.

الصبر مَطِيَّة لا تَكْبو

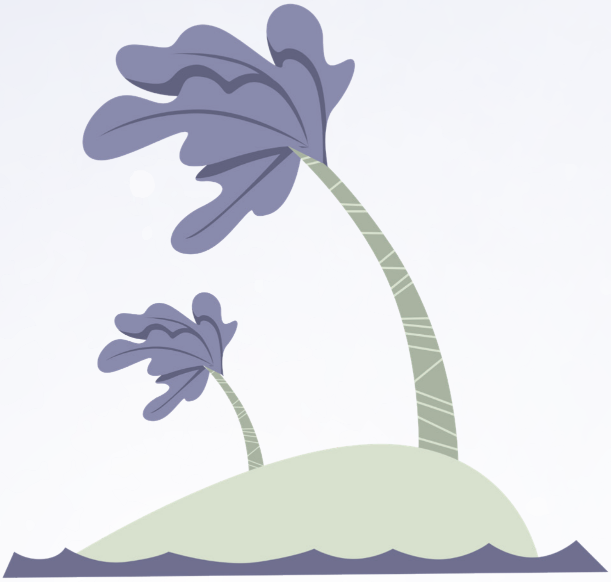

شبَّه سيّدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه الصبر بالفرس الذي ينطلق به، وهو فرس متميّز بعَدْوِه، ولا يمكن أن يكبو فيما يواجهه؛ أي لن يسقط على وجهه، ولن يتعثّر، ولن يفقد توازنه في سيره، ولن يُزَل، وهذا يعني أنّ الإنسان إذا ما اعتمد على خُلق الصبر في بلوغ هدفه ومراده، فإنّه حتمًا سوف يصل؛ لأنّ الصبر خُلُق لا يخذل صاحبه.

ومن ليس له ولا عنده صبر، لا بدّ أن يصيبه من الكبوات ومن التعثّر في الحياة ما هو مشاهَد في أسوأ أحوال من يختار السخط في مواجهة ما يصيبه في الشدائد، فالحقيقة أنّ رصيده من الصبر أصبح صفرًا.

السؤال الذي ينبغي للمسلم أن يعرف إجابته هو: لماذا علينا أن نصبر؟ وللإجابة عن هذا السؤال نقول:

١- نحن نصبر لأنّ الجزع وعدم الصبر لا يُفيد، بل يُعرِّض الإنسان لغضب الله وسخطه؛ لأنّ فيه اعتراضًا على أقدار الله ﷻ، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبيّ ﷺ قال: «إنَّ عِظمَ الجزاءِ مع عِظمِ البلاءِ، وإنَّ اللهَ إذا أحبَّ قومًا ابتَلاهم، فمَن رَضي فله الرِّضَى، ومَن سخِط فله السَّخَطُ»[١].

---

١ (صحيح الترمذيّ: ٢٣٩٦).

٢- نحن نصبر تسليمًا بقضاء الله سبحانه وتعالى، ورضى بما يُقدِّره علينا، والصبر والرضا والتسليم بقضاء الله سبحانه وتعالى وقدره أمور تفتح للعبد أبواب العطاءات الربّانيّة؛ فإن كنت في محنة وكرب، فالصبر ونيسك، ووسيلتك للعبور من ظلمات الكرب إلى نور الفرج.

٣- نحن نصبر طمعًا في الأجر والثواب والجزاء العظيم الذي أعدّه الله سبحانه وتعالى للصابرين، إذ يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۗ وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ١٠﴾ [الزمر: ١٠].

وإن وقع عليك قضاء الله وقدره ففارقك أحد من أحبابك، فتذكَّر قوله ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: مَا لِعَبْدِي الْمُؤْمِنِ عِنْدِي جَزَاءٌ، إِذَا قَبَضْتُ صَفِيَّهُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا ثُمَّ احْتَسَبَهُ، إِلَّا الجَنَّةُ».[١]

المقصود بالصفّي من تصافيه، وهو خلاصة الأحباب والأصحاب، الذي يكون بينك وبينه الصفا والودّ، فهذا إذا قُبِض لا شكّ أنّ المصيبة فيه تعظم، وأنّ النفس تحزن لفقده، فإذا زمّ الإنسان نفسه بالصبر في مثل هذا المقام، لاقى الجنّة التي وعده بها الله سبحانه وتعالى.

قال: ثمّ احتسبه؛ أي: احتسب الأجر على الصبر على فقد هذا الصفيّ المحبوب، فليس له جزاء إلّا الجنّة، ولذلك كان السلف الصالح يدركون هذا المعنى إدراكًا جيّدًا، وقد ذُكِرت في بعض المناسبات طرف من أخبارهم، فمن ذلك ما جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه، لمّا دخل عليه بعض أصحابه فرأوا صِبْية عنده وغلامانًا كالدنانير؛ أي: بحسنهم وبهائهم ونضارتهم، فجعلوا ينظرون إليهم، فقال: «تنظرون إليهم؟ والله إني لأتمنّى موتهم»، فهذا محمول على احتساب هذا الأجر الموعود به.

---

١ أخرجه البخاريّ، كتاب الرقاق، (٥/ ٢٣٦١)، رقم: (٦٠٦٠).

وكذلك قول عمر بن عبد العزيز لابنه عبد الملك: «يا بنيّ، والله إنّي لأحبّ أن تموت قبلي لأحتسبك»، فقال: «والله ما بي كراهة لما تحبّ يا أبت».

فكانوا يستشعرون مثل هذه المعاني، ويعرفون أنّ الأجر عند الله ﷻ عظيمٌ، وأنّهم يبلغون بهذه المصيبة من المنازل العالية الرفيعة ما لا يبلغونه بصلاة ولا صيام ولا قيام، فإذا وقع للإنسان شيء من المكروه، ثمّ احتسب ذلك عند الله ﷻ، رُفِع بهذا، وكُفِّرت عنه من خطاياه، فالمؤمن في ربح دائم مستمرّ، والله ﷻ لا يبتليه ليكسره، وإنّما ليرفعه.

وكذلك إذا خسرت عملًا، أو قلّ رزقك، فاصبر، فَبِه تؤجر، وبه تسلم، فما للجزع من خير، فهي أقدار، واللهِ وهي خير لك.

والصبر وسيلتك وعونك للقيام بما فرض الله عليك من طاعات، ووسيلتك وعونك لاجتناب ما حرّم الله عليك من المعاصي، ووسيلتك وعونك إن أردت القربى من الله ﷻ، فاصبر.

٤ – الصبر ليس فعلًا سلبيًّا كما يظنّ الكثيرون، فهو يدفعنا إلى تجاوز الجِراح والآلام، وإلى التفكير من أجل إيجاد الحلول المناسبة للمشكلات والنوازل التي نتعرّض لها، وما أكثرها في هذا الزمان، بينما يؤدّي الجزع إلى الانغلاق على الذات، والبكاء على الماضي الذي لن يتغيّر أو يعود، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «مَرَّ النبيُّ ﷺ بامْرَأَةٍ تَبْكِي عِنْدَ قَبْرٍ، فَقالَ: اتَّقِي اللَّهَ واصْبِرِي، قالَتْ: إلَيْكَ عَنِّي، فإنَّكَ لَمْ تُصَبْ بمُصِيبَتِي، ولَمْ تَعْرِفْهُ، فقِيلَ لَهَا: إنَّه النبيُّ ﷺ، فأتَتْ بَابَ النبيِّ ﷺ، فَلَمْ تَجِدْ عِنْدَهُ بَوَّابِينَ، فَقالَتْ: لَمْ أعْرِفْكَ، فَقالَ: إنَّما الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى».(١)

في هذه الحياة المتقلّبة، نحتاج إلى نور لنرى الطريق.

١ (صحيح البخاري: ١٢٨٣)

الصبر يضيء لك وقت الشدّة

يضيء الصبر للإنسان عندما تحتلك الظلمات، وتشتدّ الكربات، فيكون صبره ضياءً له، يهديه إلى الحقّ؛ ولهذا ذكره الله ﷻ من جملة الأشياء التي يُستعان بها؛ لأنّه ضياء للإنسان في قلبه، وضياء له في طريقه ومنهاجه وعمله، وكلّما سار إلى الله عزّ وجلّ على طريق الصبر، زاده الله تعالى هدى وضياء في قلبه.

وهكذا يظلّ الصبر سراجًا لنا في دروب الحياة، ونورًا في ظلمات الفتن، ورفيقًا في غربة الزمن، حتّى إذا وصلت الفتن أوجها في مثل عصرنا –مِن تسلُّط الأعداء وضعف الصالحين–، فلا علاج أنجع من صبر جميل مع إحسان في العمل، فليسَ للنّاسِ حَلٌّ اليومَ إلّا الصبرَ.

قال ﷺ: «إِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامَ الصَّبْرِ، لِلْمُتَمَسِّكِ فِيهِنَّ يَوْمَئِذٍ بِمَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ»، قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَوَ مِنْهُمْ؟ قَالَ: «بَلْ مِنْكُمْ»[1].

أفلا نرى اليومَ بعين البصيرة أنَّ الصبرَ على طاعة الله تعالى والصبرَ عن معصيتِه والصبرَ على أقدارِه المؤلمة كالجمرة التي يقبضُ عليها المسلمُ بيدِه؛ وذلكَ لأنَّهُ لا يجدُ على الصَّبرِ أعوانًا؟ فاجعلوا الصبرَ سفينتنا، ستجدون خيرًا وهُدىً وسعادةً وفلاحًا، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٢٠٠﴾ [آل عمران: ٢٠٠]؛ فالصبر في حَوَالك الأزمات يُضيء للإنسان الظلمات عندما تشتدّ الكربات، فيعصمه من التخبُّط مهما ترادفت الضوائق، ويحفظه من القنوط واليأس مهما كثرت العوائق.

صبر ساعة

علينا ألّا نكلَّ ولا نملّ من الصبر على البلاء الذي حلَّ بنا والذي سيحلّ، فلنحتسب هذا البلاء امتحانًا من الله لنا، ولنتحسب الأجر والثواب عند الله، فهوَ وليّنا، وهو ناصِرنا، وهو على كلّ شيءٍ قديرٌ، وحاشا له أن يتركنا إن صبرنا ونجحنا في هذا الامتحان الربّانيّ العظيم.

١ (صحّحه الألبانيّ، ٣١٧٢).

ومَنْ تذكَّر أنّ عمر الدنيا قصير، ومتاعها حقير، وإنَّما هي ساعة من نهار، كما ذكَر العزيزُ الجبّارُ، قضى هذه الساعةَ في الصبر، فقد أمضى النبيُّ ﷺ خمسينَ يومًا في مشقَّة وعُسر في غزوةُ تبوك،حتّى قِيلَ لِلفاروق رضي الله عنه: حَدِّثْنَا مِنْ شَأْنِ الْعُسْرَةِ، قَالَ:«خَرَجْنا مع رسولِ الله ﷺ إلى تبُوكَ في قَيظٍ شَديدٍ، فنزَلْنا مَنزِلًا أصابَنا فيه عطَشٌ، حتّى ظننَّا أنَّ رِقابَنا ستنقَطِعُ، حتّى إن كان الرَّجُلُ لَيَذهَبُ يلتَمِسُ الماءَ فلا يرجِعُ حتى يظُنَّ أنَّ رَقَبتَه ستنقَطِعُ، حتى إنَّ الرَّجُلَ لَينحَرُ بَعيرَه فيعصِرُ فَرْثَه فيَشرَبُه، ويَجعَلُ ما بَقِيَ على كَبِدِه؛ فقال أبو بكرٍ: يا رسولَ اللهِ، إنَّ اللهَ قد عَوَّدَك في الدُّعاءِ خيرًا، فادعُ لنا. قال: تحِبُّ ذلك؟ قال: نعم. فرَفَعَ يدَيه، فلم يَرجِعْهما حتى قالتِ السَّماءُ، فأظَلَّتْ ثم سَكَبَت، فمَلَؤوا ما معهم، ثم رَجَعْنا ننظُرُ فلم نَجِدْها جاوَزَتِ العَسكَرَ»[1].

وقد سمَّى الله تعالى غزوة «تبوك» التي استمرّت شهرًا بساعة العُسرة، إذ قال سبحانه وتعالى: ﴿سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١١٧﴾ [التوبة: ١١٧]؛ تهوينًا لأمرها، وتيسيرًا لهولها، وإخبارًا بعِظَمِ أجرها.

قال الإمام البِقاعي رحمه الله: «وسمَّاها ساعةً؛ تهوينًا لأوقات الكروب، وتشجيعًا على مُواقعة المكارهِ؛ فإنَّ أمَدَها يسيرٌ، وأجرها عظيم خطير، فكانت حالُهم باتباعه في هذه الغزوة أكملَ مِنْ حالهم قبلَها»[2].

ولذلك تحدَّث أهل الصبر عمّا يجدونه من لذاذة الحياة به:

وَالصَّبْرُ مِثْلُ اسْمِهِ مُرٌّ مَذَاقَتُهُ *** لَكِنْ عَوَاقِبُهُ أَحْلَى مِنَ العَسَلِ

إنّ الصبر مُرُّ المذاق في ساعة الحال، حُلو المذاق في العاقبة والمآل، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ١٢٦ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ١٢٧﴾. [النحل: ١٢٦-١٢٧]

١ أخرجه البزار (٢١٤)، وابن خزيمة (١٠١)، وابن حبان (١٣٨٣).
٢ الإمام البِقاعي في «نظم الدرر» (٩/ ٣٦، ط. دار الكتاب الإسلامي).

صبِّر نفسك

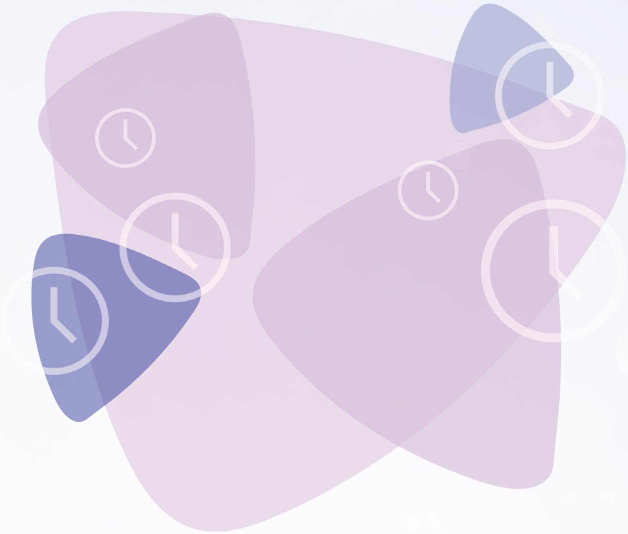

مَنْ لم يكن مجبولًا على الصبر، فليستعن بالله، وليتصبَّر بمجاهَدة نفسه على تحقيق مقامه، فمَنْ عوَّد نفسَه الصبرَ، تعوَّدت وأخذَت به وتدرَّجت حتّى يفوز بأعلى منازل الصابرين، وفي الصحيحين قال ﷺ: «وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ».[1]

انظر إلى الزَّرع الذي نأكل منه، لا يكون إلا ببذر البذرة، ثمّ الصبر عليها إلى أن تنبت، ثمّ إلى أن تُحصَد، وهكذا الغرس، لا بدّ من الصبر عليه حتى يُخرِج ثمره.

---

١ (صحيح النسائيّ: ٢٥٨٧).

وما أحوجنا اليوم إلى تفعيل الصبر في حياتنا في مواجهة المصائب والصعاب التي تعترض طريقنا في هذه الحياة، ولا سبيل لتجاوزها إلّا بالصبر والمصابرة ومجاهدة النفس والأعداء، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٢٠٠﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

«الصَّبر ضياء»: يشعّ في النفس، فلا تضجر عند وقوع المكاره، ولا تيأس عند تأخّر النتائج، ولا تركن عندما تستثقل الأعباء، ولا تجزع عند وقوع البلاء.

«والصَّبر ضياء»: أي إنّه يُضيء القلوب ويُنيرها، وينير الطريق ويهدي السبيل، فالله يهدي الصَّابرين إلى أحسن الأخلاق والأعمال، ويُعينهم على الطَّاعة والإحسان، ومن يتصبَّر يصبره الله، هذا في الدنيا، أمَّا في الآخرة، فهو ضياء لأهله في القبور، وضياء لأهله يوم البعث والنشور، وضياءٌ لأهله يوم يلقون العزيز الغفور سبحانه وتعالى.

وأسأل الله أن ينفعنا وإيّاكم، وأن يجعلنا وإيّاكم من الصابرين، وأن يرزقنا وإيّاكم الهدى والسداد والثبات في الأمر، وأن يعيننا وإيّاكم على الرشد، وأن يوفقنا لما يحبّ ويرضى، وصلّى الله على محمّد، وعلى آله وصحبه.

المراجع

١ الصبر مطية لا تكبو
خالد بن عبد الرحمن الشايع

٢ أهمية الصبر
عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

٣ الصبر
ملتقى العلماء

٤ ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيه
خالد سبت

٥ لماذا يجب علينا أن نصبر
محمد خاطر